

## ثقافة الاختلاف عند الأمير عبد القادر : تمركز حول الذات أم انفتاح وقبول للآخر ؟

إبراهيم بن عمّار<sup>(1)</sup>

### مقدّمة

يعتبر الاختلاف من المواضيع التي راجت كثيرا كونها تشكل أزمة حقيقية في العصر الراهن، والتي تطرح نفسها بقوة في كل ثقافات العالم، بل هي واقع يخترق كل مجتمع بشري، إذ لا يوجد مجتمع يخلو من التعدد والتنوع، وتكفي نظرة عابرة على ما يحدث الآن في العالم من تطرف - ديني أو عرقي - يمينا ويسارا لنتأكد من خطورة الواقع الذي يعيشه العالم بما يفضي إلى تهديد السلم العالمي.

مثل الأمير عبد القادر الشخصية الملحمية التي ارتبط اسمها دائما باسم مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، وقد كان الأمير عبد القادر صوفيا، والرؤية الصوفية مثلت دوما وعبر التاريخ ذروة الرؤية الإنسانية المتفتحة والمتسامحة، والمعترفة بحق الاختلاف وقبول الآخر. وهنا جاءت أهمية دراستنا محاولين النظر بعمق في شخص الأمير عبد القادر ودراسة ثقافة الاختلاف في فكره من حيث تصوره للآخر المختلف، خاصة في ظل الحملة الشرسة المتواصلة التي يتبناه الغرب - خاصة المستشرقين منهم - لتشويه صورة الإسلام والمسلمين في المجتمعات الغربية، مؤكدين أن الإسلام دين منغلق على ذاته رافض للآخر وغير قادر على التعايش مع ثقافات العالم.

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في ثقافة الاختلاف لدى الأمير عبد القادر، من حيث النظر في طبيعة هذه الثقافة بين الانفتاح والقبول للآخر المختلف أو الانكفاء على الذات

---

<sup>(1)</sup> Université de Mostaganem, 27000, Mostaganem, Algérie.

والتمركز حولها. وذلك من خلال طرح جملة من التساؤلات : فيم تتمثل الأبعاد الروحية المكونة لشخصية الأمير عبد القادر ؟ وما هي تجليات ثقافة الاختلاف لدى الأمير عبد القادر ؟ وهل تتجاوز ثقافة الاختلاف لدى الأمير عبد القادر ظاهرة التمركز حول الذات وإنكار الآخر إلى وضع الذات في عالم مختلف يقبل الآخر ويعترف به ككيان ثقافي حضاري يتعايش معه ؟ وإلى أي مدى تسهم فلسفة الاختلاف للأمير عبد القادر في إثراء الثقافة الإنسانية ؟

### الأبعاد الروحية المكونة لشخصية الأمير عبد القادر

إنّ قراءتنا لفكر الأمير عبد القادر يدفعنا بداية إلى التنقيب والبحث في مكوناته الشخصية ومعرفة البعد الديني الروحاني لها، ذلك أن فهم وتفهم مواقف الأمير السياسية والاجتماعية والعسكرية ينبغي أن يمر حتما عبر فهم الثقافات والعقائد الدينية الصوفية التي أطرت عقل الأمير عبد القادر، وصنعت تفكيره وتعبيره وتدييره، "وكما هو الأمر دائما مع الأمير عبد القادر يجب إجراء قراءة مضاعفة خفية وظاهرة، إذ إنّ في اللحظة التي يبدو فيها أكثر ما يكون جليبا هو أكثر خفاء" (برينو اتيان، 2001، ص. 406).

إذا تعدد تعريف الصوفية للتصوف، فإن الأمير عبد القادر يرى أن التصوف هو "جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية لا شيء آخر من غير سبيل الله"، وإذا كان كل صوفي يعرف الصوفية كما يقول ابن خلدون بما يتفق وحاله، فإنّ تعريف الأمير هذا يتفق مع وقفته التاريخية في الجهاد ضد العدو وضد النفس، فهو دائما الفارس الذي يخوض المعارك في الخارج مع العدو، أو في الداخل مع النفس الأمارة، والصوفية في نظره هم هؤلاء الذين علمهم "أن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم حاضرين مع الله تعالى" (بركات محمد مراد، 2013، ص. 56).

بدايةً تعلق الأمير عبد القادر بالتصوف والتعرف على مبادئه ورجاله كانت منذ صغره، حيث تربى تربية صوفية في أحضان أسرته التي اشتهرت بصلاحها وشرفها وانتماءها إلى سلالة الأشراف الأدارسة الحسنيين، وإلى الطريقة الصوفية القادرية، وإشهار الأذكار والطريقة، وألف في التصوف كتابا جليلا سماه "إرشاد المريدين" (محمد بن عبد القادر الجزائري، 1903)، والمتتبع لخطوات الأمير عبد القادر في المجال الصوفي يمكنه تقسيم مسيرته الروحية إلى ثلاث مراحل على حد تعبير السيد عبد الباقي مفتاح : "باستعمال

اصطلاح القوم نقول أنها أولا التعلق، ثم ثانيا التخلّف، وثالثا التحقق" (عبد الباقي مفتاح، د.ت. ص. 24).

## مرحلة التعلق

إنّ مسيرة الأمير الصوفية تبدأ من مرحلة التلقين إلى الفتوة والرباط، وهي التي تشكل مرحلته الأولى، مرحلة الإمارة والجهاد من (1264/1246هـ-1848/1830م) (عبد الرزاق بن السبع، 2000)، ويؤرخ الأمير بنفسه للمرحلة الأولى من حياته حين يقول:

"كنت مغرما بمطالعة كتب القوم رضي الله عنهم-يقصد الصوفية- من الصبي غير سالك طريقهم، فكنت في أثناء المطالعة، أعرّ على كلمات تصدر من سادة القوم وأكابرهم، يقف شعري وتنقبض منها نفسي مع إيماني بكلامهم على مرادهم، لأنني على يقين من آدابهم الكاملة وأخلاقهم الفاضلة." (الأمير عبد القادر، 1996، ص. 15)

كان الأمير في هذه الفترة متعلقا بالطريقة الصوفية محبا لأهلها، اكتسب تكويننا نظريا وثنائيا وفكريا مكنه من فهم المكتوبات الصوفية برموزها وألغازها، وإدراك عقلي ممتاز لحقائقها (عبد الرزاق ابن سبع، 2000)، تعلق فيها الأمير بما قرأه أو رآه في رحلته الدينية رفقة والده لزيارة ضريح القطب الرباني عبد القادر الجيلاني (بلغراد، 1983)، وقد انعكس كل ذلك على جهاده الأكبر والأصغر (أي جهاده لعدوه ونفسه).

## مرحلة التخلّف

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التخلّف حيث خلوات السجن والمجاهدة (عبد الرزاق مفتاح، 1998)، عندما اصطدم الأمير بالأسر فكان اللجوء الكامل لله عز وجل في خلوة اقتنع فيها أن الدل لا بد من أن يكون لله وحده بالصلاة والخضوع، وهنا كانت ترد الواردات عليه مباشرة فاستلهم منها الأمير جزءا من صبره بعد أن ضاقت عليه الأرجاء وتغير حاله فلم يجد عزا غير الدعاء في الخلوة (عبد الرزاق مفتاح، 1998) مع الكثير من التأمل والتفكير الروحاني الهادئ العميق (عبد الرزاق مفتاح، 1998).

كانت هذه المرحلة فعلا حلقة وصل بين مراحل تصوفه الأخرى، هنا التقى الأمير بمحمد الشاذلي القسنطيني، "ويبدوا أن الأمير عبد القادر تتلمذ على يديه وتلقى عليه مبادئ

الطريقة الشاذلية وأصولها وناقشه في الموضوعات الصوفية" (عبد الرزاق ابن سبع، 2000).

## مرحلة التحقق

دخل الأمير في مرحلة أخرى من التصوف وهي مرحلة التحقق أو ما سماه هو بالفتح المبين والحصول على التمكين، وقد تواصلت هذه المرحلة إلى وفاته وتحولت فيها علاقته بالشيخ الأكبر من القول إلى الفعل (عبد الرزاق مفتاح، 1998).

لم يكن تخلي الأمير عبد القادر عن الكفاح المسلح نهاية لتصوفه بل بداية له، بداية ترفض كل أشياء الركون وتعبر عن عزيمة المقاومة، رغم هذا لم يتوقف الأمير كلياً عن القيام بواجبه المسلح، بل راح يفرج كرب الأمة برحمة أفرادها (المرابط، 1966)، بعد أن أصبح كل همه روحانياته والطرق المؤدية إلى الله.

البناء الصوفي للأمير كان أساسه تراثه الموروث والأدب والعلم (عبد الرزاق بن السبع، 2000)، مما أنتج ثقافة فقهية وفيلسوفاً حكيماً يتمتع بصفاء الرؤية وبمعرفة قلما تمتع بها غيره، استطاع بفضلها أن يحل مشاكل قومه ومصيرهم، بعد أن مر بمجاهدة نفسه وتطهيرها. فتصوف الأمير عبد القادر لا يرفض العالم إنما يبغي حياة صامته ضمنه، قادرة على وقاية نوع من التخفي الروحي في الوقت ذاته الذي يقوم بدور فعال وكأنه غائب عنه (برينو إتيان، 2002).

## الأمير عبد القادر وضرورة قبول الآخر المختلف

يمثل الخطاب الغربي-سواء الإعلامي منه أو الأكاديمي-أداة فاعلة يتم من خلالها التأثير على المجتمعات الغربية، ذلك من خلال الصورة النمطية التي يروجون لها عن الآخر العربي والمسلم كون الإسلام كدين لا يمكن أن يكون بحق عامل تنوع في أوروبا من خلال المهاجرين أو من خلال الاحتكاك الحضاري العام (الجابري، 2012)، فها هو الأنثروبولوجي كلود ليفي شتراوس حين صرح قائلاً: "إن المسلمين لا يحتملون وجود الآخر كآخر" وقوله: "اللقاءات القصيرة التي جمعتني بالعالم العربي رسخت في نفسي نفورا وكرهية يتعذر استئصالها"، وقوله: "لقد أصابتنا عدوى العنف الإسلامي"، وكلام من قبيل هذا كثير خاصة من قبيل المستشرقين المعاصرين، أمثال برنارد لويس، دانييل بايبس الذين أنكروا على المسلمين

والإسلام التحلي بقيم التسامح والقدرة على العيش مع ثقافات العالم المختلفة، كما اتهموا المسلمين ودينهم بالتعصب والإرهاب.

والإسلام كدين وحضارة شيء، أما الصورة التي يروج لها الغرب -الأكاديمي والإعلامي- فشيء آخر، شيء يصنعه هو (أي الغرب)، أما التطرف الذي تعاني منه بعض الدول العربية والإسلامية تحت شعار الإسلام، فالمسئول عنه ليس الإسلام فهو مجرد شعار للتعبئة، إن المسئول هي السياسة الامبريالية الاستغلالية التي يتبعها الغرب، والتي تفرض على الشعوب نوعا خاصا من الهيمنة لتكريس تبعية بلدانها للمراكز الأوروبية ورعاية مصالحها (الجابري، 2012).

وإذا كان الأمير عبد القادر باعتباره أحد أقطاب ورجال العالم الإسلامي، وقادته الذين اتخذوا الإسلام شريعة تهدي طريقهم وتسير شؤونهم الدنيوية والأخروية، فالأمير عبد القادر الجزائري الزاهد والعالم والعسكري امثل لتعاليم الدين الإسلامي عقيدة وعملا، وحاول أن يؤسس منهجا خاصا في فلسفة الاختلاف والنظر للآخر المختلف عنه في إطار مرجعية دينية صوفية. وعلية فهل ما يطرحه الأمير عبد القادر وينظر له في إطار رؤيته للآخر المختلف يفند الكلام والتعميمات التي أصدره الغربيون خاصة المستشرقين منهم، أم أن ما تبناه الأمير يخرج عن سياق المغالاة في الحكم عن الإسلام والمسلمين التي تبناها الغرب، وي طرح صورة مغايرة يثبتها ويؤكد عليها الواقع ؟

يؤسس الأمير عبد القادر لثقافة الاختلاف كون الاختلاف هو أصلا ظاهرة، وما الاختلاف بين شخص وآخر ... والاختلاف بين جماعة وأخرى ... والاختلاف بين ثقافة وثقافة أو حضارة أخرى ... تفسيره عند الأمير يرجع في الأخير إلى تباين تجليات الأسماء والصفات الإلهية في الوجود، وهو ينطلق في فكره هذا من خلال مبدأ التوحيد، والذي ينظر إليه كمسألة اجتماعية وليس كمسألة إلهية ميتافيزيقية فقط، أي أن توحيد الله في أسمائه يقود مباشرة إلى المساواة بين بني البشر على الأرض، وإذن الاختلاف قدر الهي لا يمكن رفعه أو دفعه لكن يمكن تفهمه وفهم منشئته وإعطائه الشرعية الوجودية، يقول الأمير عبد القادر : "صاحب التحقيق يرى الكثير في الواحد، كما يعلم أن مدلول الأسماء الإلهية إن اختلفت حقائقها وكثرت أنها عين واحدة، فهذه كثرة معقولة في واحد العين فتكون في التجلي كثرة مشهودة في عين واحدة" (الأمير عبد القادر، 1996، ص. 411)، لذا ينصح الأمير مريده وقارئه بضرورة "النظر في عقائد الخلق والبحث في منزل كل اعتقاد لتعرف

مستنده من الأسماء الإلهية، وتعرف الحجاب الذي أعى صاحبه عن الطريق المثلى طريق النجاة" (الأمير عبد القادر، 1996، ص. 411).

وتجد ثقافة الاختلاف بنيتها الأساسية ومرجعيتها في اعتبار الاختلاف بين البشر والتعدد في الوجود كله، في اختلاف الأسماء الإلهية وتباينها، وهنا يصل إعطاء الحق في الاختلاف إلى درجة المشروعية الإلهية، وهذه الثقافة ينسب عليها التصور الإسلامي العام للآخر، والتي تقوم على مجرد الاختلاف والمغايرة وليس السلب والنفي (الجابري، 2012). ومن وجهة نظر أنثربولوجية ليس هنالك سلم مفاضلة بين الثقافات، وإنما هنالك تنوع نسبي بين الثقافات، ومفهوم التفوق الثقافي ليس إلا وليد الأحكام المسبقة الذي تمثله المركزية الاثنية أو الميل لاعتبار ثقافتنا الخاصة نموذجاً للإنسان (فرعون حمو، 2009). وعليه فهذا التصور الذي تبناه الأمير عبد القادر الصوفي هو دحض قوي لجملة الأحكام التي يصدرها الغرب من مفكرين وإعلاميين - خاصة المستشرقين - عن الإسلام باعتبار الدين المنغلق الراض للآخر وغير القادر على التعايش معه.

إذن فالتصوف الإسلامي الأميري يمكنه أن يساعد على تجاوز مشكلة التميز العنصري والعرقى، والخروج من المرتكزات الاثنية والثقافية، ويسهل عملية الحوار بين الثقافات والحضارات، خاصة في ظل تصاعد البعد الثقافي- الديني في العلاقات الدولية لمرحلة ما بعد الحرب الباردة كسبب للعديد من الصراعات داخل الدول، وحتى على مستوى النظام الدولي في إطار ما يعرف بصراع الثقافات والحضارات.

## تجليات ثقافة الاختلاف عند الأمير عبد القادر

### في اختلاف الهويات

تشكل الهوية واختلافاتها أحد أكبر الأسباب الدافعة للصراعات في العصر الراهن، وبحسب القول الثقافي السائد، الهوية كينونة مغلقة وليس الآخر موجوداً بالنسبة لها، إلا بقدر ما يتخلى عن هويته ويتحول إليها وينصهر في إنيتها، فهي إما أن تقرب الآخر لئتماها معه، وإما أن تنبذه لكي تتفصل عنه، وهذا ما يجعل الكون مستودعاً لركام التناوب والتنافي، فيخلق على مستوى الإنسان كونية زائفة، وكونية سيد وعبد، نابذ ومنبوذ، ويخلق على المستوى التاريخي كونية استغلال وتقنية استهلاك، وعلى المستوى الحضاري كونية تماثلية تلغي الحرية والإبداع كما يقول المفكر السوري (أدونيس، 2006). وهوية أي أمة هي صفاتها التي تميزها عن باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية.

إنّ تحديد الأمير عبد القادر للهوية لم يخرج عما طرحه مشايخ الصوفية، إن الهوية التي تبناها الأمير عبد القادر ليست هوية وجه أو سنة ولادة أو علامات فارقة ... وليست هوية عرق أو دم أو هوية جغرافيا أو تاريخ ... كما أنها ليست هوية وطن أو لغة أو نص ... إن استراتيجية الهوية التي طرحها واقترحها الأمير هي هوية متعالية وعابرة للتيارات والإيديولوجيات والمذاهب والأديان (فرعون حمو، 2009)، في تصور الأمير "الهوية عند الطائفة كناية عن الغيب المغيّب" (الأمير عبد القادر، 1996، ج. 2). و"الهوية السارية هي معيته تعالی بذاته من غير سريان ولا حلول، ولا اتحاد ولا امتزاج ولا انحلال" (الأمير عبد القادر، 1996، ج. 1، ص، 191).

لقد رفض الأمير كل الهويات التي تبعده عن الله، وهوية الله عنده تتغلب فيها صفات الجمال على صفات الجلال لذا جاءت هويته كلها رحمة وجمال ومحبة، والهوية التي تبناها الأمير تمحى فيها عموما كل التصنيفات المألوفة للبشر أفرادا وجماعات، ويتمثل الاختلاف فيها نسيج الوجود كله (الأمير عبد القادر، 1996، صص. 7-8) وفي هذا يقول الأمير الجزائري :

ففي أنا كل ما يؤمله الورى      فمن شاء قرأنا ومن شاء فرقانا  
ومن شاء توراتا ومن شاء إنجيلا      ومن شاء مزمارا زبورا وتبياننا  
ومن شاء مسجدا ينجيه ربه      ومن شاء بيعة ناقوسا وصلباننا  
ومن شاء كعبة يقبل ركنها      ومن شاء أصناما ومن شاء أوثاننا  
ومن شاء خلوة يكن بها خاليا      ومن شاء حانة يغزل غزلانا  
ففي أنا ما قد كان وما هو كائن      لقد صح عندنا دليلا وبرهاننا

وهنا جاء طرح الأمير خارج الأنساق المغلقة التي تخنق الهوية الإنسانية، كما جاءت نظرة الأمير إلى المختلف هي أكثر رحابة وأصالة.

### في اختلاف الأديان والمعتقدات

إذا كان تصور معنى الله هو البنية الأساسية لكل دين فإنّ تاريخ الأديان كله في نظر الأمير عبد القادر ليس سوى تاريخا لتمثيلات الناس العفوية عن الله، ليس إلا تاريخا

لتصورات ونظريات المؤسسة الدينية والفلسفية لفكرة الألوهية، ويعتقد الأمير أن الأديان كلها قدمت تصورات بشرية عن الله أو ما يسميه بـ"إله المعتقدات" و"إله المعتقدات" صورة أو تصور أو فكرة الله التي يخلقها عقل العبد أو تقليده فيسمعها قلبه، إنها صورة صفاتية يسعها كل إنسان على قدر طاقته وعلمه (فرعون حمو، 2009-2010، ص. 125).

وخصوصية الأمة المحمدية حسب الأمير تكمن فقط في طبيعة ونوعية التجلي الإلهي الذي انفردت به هذه الأمة من خلال خاصة أوليائها المحمدين، فالله تعالى يتجلى لهم تجليا كاملا مطلقا إرثا ووراثة للنبي محمد الخاتم الكامل بالأصالة، عكس الأمم الأخرى التي عرفت الله محصورا مقيدا إما في المسيح كما هو عند المسيحيين، أو في عزيز، أو الأحبار كما هو عند اليهود، أو عرفوا الله متجليا في النار كما عند المجوس، أو متجليا في النور والظلمة عند الثنويين، وحتى عبدت الأحجار والأشجار والحيوانات، وما عبدوا إلا الله متجليا لهم في تلك الصورة المقيدة المحصورة، فإن عبادة الأوثان مثلا تجل منه تعالى عليهم، أي العابدين (الأمير عبد القادر، 1996، ج. 2، ص. 23)، ويتكأ الأمير هنا على تأويلاته "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله سميع عليم"<sup>1</sup> فوجه الله تعالى ظاهر ومتجلي في كل صور عبادات الخلق مهما كانت، فالله تعالى واحد واسع في تجليه، ما تغير منذ الأزل إلى الأبد، واحد من ناحية ذاته المقدسة متعدد متنوع في ظهورات صفاته وتجلياته، لكنه ﷻ يتجلى ويتنزل بحسب إدراك المتجلي له (الأمير عبد القادر، 1996، ج. 2، ص. 57)، فإنه اليهود وإله النصراني، وإله الصابئة، وإله المجوس، وإله الثنويين والوثنيين، بل وإله كل الأديان التي عرفتها البشرية هو إله واحد وأحد، لكن المشكلة والخطأ الأكبر وقع في التعيين وفي المعرفة، وما شقي من شقي إلا بكونه عبده في صورة محسوسة محصورة.

لقد شق الأمير طريقا ملكيا إلى التسامح العقائدي، فمذهب وحدة الوجود يوصلنا إلى "كل المعبودات التي توجه إليها كل البشر في كل مكان وزمان لم تكن في واقع الحال إلا تجلي أسماء الله، وإن التوجه إليها بالعبادة لم يكن إلا طريقا لمعرفة الذات الإلهية الحقبة لأن الله تعالى قال في كتابه " وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ "، ولم يقل وأمر ربك أن تعبدوا إلا إياه، كل عبادة تتوجه والخالة هذه لغير الله مألها إليه (السواح، 2002، ص. 306).

<sup>1</sup> سورة البقرة: الآية، 115.



هذا الطرح الذي تبناه الأمير يقع في الإطار العام للشريعة الإسلامية، فالإسلام يقوم أساسا على الاعتراف بالاختلاف وقبول التنوع، إن الإسلام يعترف باليهودية والمسيحية كديانتين سماويتين، والإسلام يقرر كجزء من عقيدته أن الله جعل الناس مختلفين، وقد طبق الإسلام هذا طوال تاريخه من خلال أتباعه وقادته (الجابري، 2012).

### ثقافة الاختلاف في تعاملات الأمير عبد القادر

السؤال الذي يقفز إلى ذهن الباحث بعد قراءة لفكر الأمير في إطار البحث عن ثقافة الاختلاف لديه، وما حددها من مفاهيم وتنظير تقع في مجملها في إطار شرعية الاختلاف بين بني البشر وضرورة احترام المختلف والاعتراف به، هل كانت مواقف الأمير العملية تجسيدا لمعارفه الفكرية حول رؤيته هذه للمختلف والتي تبناها ودعا إليها ؟

إن محاولة الإجابة عن هذا السؤال نكتفي بالإشارة إلى شهادة بعض من كانوا أعداء ألداء للأمير عبد القادر، ونذكر حوادث في حياته في مراحل ثلاثة، الجهاد، ثم السجن، ثم الاستقرار بالشام، وهذه الشهادات -كما سيتم تبيناه- تؤكد أن الأمير لم يفصل بين ثقافة الاختلاف كفكر وواقع، فقد طبق تلك الثقافة في تعاملاته، وإن أكبر ما يستطيع أن يوضح لنا احترام الأمير للمخالف، هم المخالفون أنفسهم الذين دخلوا في حروب ضارية مع الأمير، وعاشوا معه، وخبروا حياته ومواقفه، ولعل الحروب أشرس ميدان يتجلى فيه عمق الاختلاف وخطورته، وفيها تظهر جليا خبايا الرجال وحقيقة ثقافتهم وقناعاتهم.

إن ثقافة الاختلاف كقناعة تشبع بها الأمير والتي استقاها من منبع التصوف، وإن الدوافع التي جعلت الأمير نموذجا للسماحة المطلقة، والتفتح العاقل، والاطلاع الواسع، والرحمة بجميع الخلق، هي تخلقه بالقرآن الكريم، وتربيته الروحية في أحضان الصوفية.

لقد تميز الأمير بفن راق يتيح لمن اتصف به وأتقنه حل المشاكل وتدبير الأمور العالقة، وربط العلاقات والصدقات مع الآخرين، إنّه فن التواصل والاتصال، فقد كان هذا الفن ميزة وخصلة الأمير عبد القادر، كما كان يؤمن بمفهوم السعي وراء المصالح بالدبلوماسية وأدب الحوار والمناظرة لقضاء عمل أو عبادة، فقد كان على وعي بالأحداث التي تجري في العالم، وذلك محاولة منه إيجاد الحلول للمشاكل العالقة، أو التخطيط المنظم للمشاريع المؤجلة، وهذا التواصل يؤكد تمسكه بتعاليم الإسلام السمحة، وتفتحته على العالم بمختلف تطوراته السياسية، والعلمية، والحضارية، وقد كان الحوار أساس علاقات الأمير عبد القادر، حيث ربط صلوات بأهم قادة العالم من خلال رسائل كثيرة آلت

إلى صلات دولية واسعة ومكثفة، ومتعددة ومتنوعة مع الكثير من ساسة العالم وقادته في كل الميادين الحربية والدبلوماسية والفكرية (يعي بوعزيز ودوميكيل دو ايبالزا، 1982).

وهذه بعض مواقف الأمير عبد القادر التي أظهرت بحق ثقافة الاعتراف والتسامح والرحمة في التعامل مع الآخر المختلف، والتي كان قد تبناها في طرح له ودعا إليها:

- يقول الأمير عبد القادر في بيت شعري، مسجلا أحداث معركة خلق النطاح:

ويوم قضى تحتي جوادُ برميمةٍ وبِي أَحَدَقُوا لَوْلَا أَلُو البَأْسِ والقَوَى

ويعلق المؤرخ الفرنسي اتيان بريو على سبب قول هذا البيت قائلا: "في هذا البيت إشارة إلى حادثة غريبة جدا من نوعها... كان الأمير قد أطلق جماعة من الأسرى الفرنسيين، بعد أن عاملهم معاملة حسنة جدا، ولما عادوا إلى قطعهم والتحقوا بجيشهم، سيرتهم فرنسا راغمين إلى قتال الأمير، باعتبارهم أعرف به من سواهم وباستطاعتهم أن يكشفوه في المعركة ويباغتوه بالقتل أو الأسر، ولكنهم حين واروا الأمير قد سقط عن فرسه وهو يحاول الدفاع عن جثة ابن أخيه الشهيد ريثما يحمله المجاهدون إلى الخطوط الخلفية، وحينما رأوا أن رفاقهم من الجنود الفرنسيين الآخرين يهاجمونه بشدة، أحرق به هؤلاء الأسرى الطلقاء كالحلقة ودافعوا عنه وحموه ريثما أتى له بفرس فركبه وأتم القتال وريح المعركة" (برينوا اتيان، 2001، ص. 150).

إنّ دلائل هذه الحادثة تحي بحسن معاملة الأمير عبد القادر لأسراه إيمانا منه بثقافة الاختلاف.

- في عام 1840م يقول المارشال سولت: "لا يوجد الآن أحد في العالم يستحق أن يلقب بالأكبر إلا ثلاث رجال وكلهم مسلمون وهم: الأمير عبد القادر الجزائري، ومحمد علي باشا، والشيخ شامل الداغستاني" (بركات محمد مراد، 2013، ص. 86).

- قصده مرة أحد الأساقفة الفرنسيين للتفاوض معه قصد إرسال رجل دين لخدمة الأسرى من الجنود المسيحيين، فيستجيب الأمير لطلبه ويضيف قائلا: "إنني متأكد بأن عملي هذا يرضي ربي إذا أتيح لبعض عباده ذكر ربهم وإتباع شرائع دينهم، لأنّ كل فرد يتبع دين آباءه، والله يحب العباد الصالحين" (هنري تشرشل، 1992، صص. 257-258).

- يشير الجنرال دوماس الذي كان مكلفا بحراسته في السجن في رسالة بعثها إلى أسقف الجزائر دو بوش الذي كانت له مع الأمير مراسلات فيخطبه قائلا يصف حالة الأمير

في السجن : "إنك ستجده أعظم وأجل في محنته منه في عزه، إنّه لا يزال كما عرف عنه، يسمو إلى أعلى الدرجات، إنك ستجده معتدلا بسيطا جذابا متواضعا ثابتا، لا يشكو أبدا، معتذرا لأعدائه-حتى أولئك الذين مازال يمكن أن يعاني على أيديهم كثيرا-ولا يسمح أبدا أن يذكروا بسوء في حضرته، ورغم أنه قد يشكو عن حق من المسلمين والمسيحيين، فإنهم سواء يجدون الصفح (محمود بوعبيد، 1983).

- وفي سنة 1852م يطلق سراح الأمير، ويلقاه بباريس الجندي الفرنسي ايبوليت لانغوا الذي كان أسيرا عند الأمير من قبل، وتحدث لانغوا عن هذا اللقاء في كتابه "مذكرات أسير عند عبد القادر" فقال : "إنني رأيت الرجل نفسه بوجهه الرصين، وبنظرة المهمة، وبكلامه القليل، عليه مسحة الأنبياء ، فكأنه كان يعيش في عالم علوي مترفعا عن كل مبتذل" (المرباط، 2007، ص. 46).

- ومن أشهر الأحداث التاريخية موقف الأمير عبد القادر الشجاع حين تزعم المهاجرين الجزائريين في الشام لإنقاذ ما يربو على خمسة عشر ألف مسيحي من القتل في الفتنة التي اشتعلت في دمشق بين الدروز والنصارى عام 1860م، ووقف متحديا جموعا هائلة مندفعة لقتلهم، ودوى بصوته قائلا : "إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن تكون خنجر جهالة، أو معول طيش، أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم...أحذركم من أن تجعلوا لسلطان الجهل عليكم نصيبا، أو يكون له على نفسك سبيلا"، وخطابه الحازم هذا ما كان إلا تطبيقا للحديث النبوي الشريف : "ألا من ظلم معاهدا أو ذميا أو أحدا من أهل الكتاب أو كلفه فوق طاقته أو أنقصه شيئا من حقه أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة" (بركات محمد مراد، 2013، ص. 86)، فقد ضرب في هذه الحادثة المثل الأعلى في التسامح الديني والمحبة والبعد عن التعصب، واحتواء الآخر والدفاع عنه، مما دعا الدول الأوروبية إلى الاهتمام به والنظر إليه بعين الإجلال، بل وتقليده الأوسمة وتسجيله بين كبار المفكرين العالميين (بركات محمد مراد، 2013)

- وفي نفس الموضوع يكتبه أسقف الجزائر بافي شاكرا صنيعة، فيجيبه الأمير برسالة يقول له فيها ما خلاصته : "ما فعلناه من خير للمسيحيين، ما هو إلا تطبيق لشرع الإسلام واحترام لحقوق الإسلام، لأن كل الخلق عيال الله وأحيمهم إلى الله أنفعهم لعباله، إن كل الأديان من آدم لمحمد عليهما السلام تعتمد على مبدئين: تعظيم الله ﷻ والرحمة

بمخلوقاته... والشريعة المحمدية من بين كل الشرائع التي تعطي أكبر أهمية للاحترام والرحمة والرأفة، وكل ما يعزز التآلف وينبذ التخالف، لكن المنتسبين للدين المحمدي ضيعوه فأضلهم الله، فجازاهم من جنس عملهم".

- وفي نفس الحادثة وفي إطار مراسلات الأمير عبد القادر مع إمام الطريقة النقشبندية الشيخ شامل- الذي قاد جهاده ضد الروس دفاعا عن بلده القوقاز نحو ثلاثين سنة، وهي المرحلة التي تزامنت مع مقاومة الأمير عبد القادر- وهو في السجن، يجيبه الأمير عبد القادر على رسالته التي يشكره فيها صنيعه قائلا :

"... إن حمايتنا لأهل الذمة والعهد هو مقتضى الشريعة السنية، والمروءة الإنسانية، فإنّ شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق، فهي مشتملة على جميع المحامد الموجبة للاختلاف...والبغي فكل الملل مذموم ومرتعه وخيم ومرتكبه ملوم ... فإنّ لله وإنّ إليه راجعون على فقد أهل الدين، وقلة الناصر للحق، والمعين حتى صار يظن من لا علم له أن أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة، والبلادة والجفوة، فصبر جميل والله المستعان ...". (مفتاح، 1998، ص. 21)

- يبعث اللورد لند نيري إلى نابولين الثالث رسالة بتاريخ 1951/08/12... يبين له فيها قدر الأمير الجزائري قائلا: "صدقني إن معارضة تحرير الأمير عبد القادر سواء أتت من جيشك، أو من برلمانك، أو من حكومتك، أو نتيجة للخسائر التي تعرض لها جيشكم الشجاع في الجزائر، لا يمكن أن تصمد لحظة أمام المقارنة مع الواجب التاريخي الراسخ الذي يسجله وطنكم والاسم الفرنسي، وإذا قدر لعبد القادر أن يموت في سجون لويس نابوليون فستكون هذه فضيحة لا تتمكن مياه نهر اللتيه le fleuve léthé أن تغسله أبدا" (برونو اتيان، 2001، ص. 470). ونهر اللتيه في الأساطير والمعتقدات المسيحية هو نهر في جهنم تحمل مياهه النسيان لأرواح الموتى.

وبذلك يكون الأمير عبد القادر قد برهن بسيرته الذاتية وبكتابات الصوفية، أن التصوف يجمع بين "العبادة النظرية" وهي في نظره العلم و"العبادة العملية"، وهي السلوك والأخلاق والعروج الروحي في طريق التصوف، وقد حقق المثال العالي على مدى ارتباط الظاهر بالباطن والإيمان النظري المجرد بالسلوك العملي النبيل ... مبرهنا بحياته

وكتاباتة على أن هذا الدين يصلح للدنيا كما يصلح للأخرة، ولا نجاة لهذه الأمة إلا بالتمسك به (بركات محمد مراد، 2013).

### نخلص في نهاية دراستنا إلى النتائج التالية

- لقد أسس الأمير عبد القادر لنموذج فكري عابر للتيارات والإيديولوجيات، وتتصالح فيه كل المذاهب والفرق والديانات، فالتصور الصوفي للأمير هو تصور شامل جامع.

- مشروع الهوية التي يقترحه وينظر له الأمير عبد القادر هو مشروع يتجاوز إيديولوجية الأعراق والاثنيات والقوميات، ويتخطى الهويات التي تنطلق من الانتساب إلى مركزيات الجغرافيا أو التاريخ أو اللغة، فالهوية المقترحة ترفض الحصر والتحديد في وطن أو دولة أو جنس أو لسان، هوية الأمير هي هوية صوفية مطلقة مرتبطة بالله.

- إن القراءة الأولية لفكر الأمير وتنظيره حول ثقافة الاختلاف تبدي لنا أن طرحه هذا يعد من المثاليات والغارق في الخيال، ويتعذر مع ذلك التطبيق العملي في الواقع، خاصة في دنيا المصالح والإرادات، ولكن المتتبع لحياة الأمير وسيرته العملية يلاحظ بما لا يدع مجالاً للشك، أن الأمير عبد القادر قد عاش حقيقة أفكاره وتصوراته وطبقها في حياته العملية، واعترف له بذلك حتى مخالفيه وأعداءه.

- إنَّ التصور الذي تبناه الأمير عبد القادر الصوفي حول الآخر المختلف والذي طبقه في واقع معاملاته كما بيناه، هو دحض قوي لجملة الأحكام والتعميمات غير المنطقية ولا الموضوعية التي يصدرها الغرب من مفكرين وإعلاميين - خاصة المستشرقين - عن الإسلام باعتبار الدين المنغلق الراض للأخر و غير القادر على التعايش معه.

- يمثل الأمير بالفعل قيمة ثقافية إنسانية نادرة من بقايا القيم الثقافية الإسلامية السامية، والتي تقوم على تقدير الآخر المختلف محترمة خصوصياته، منفتحة على الثقافات والديانات، وداعية إلى ضرورة التعايش بين هذه الحضارات والديانات.

نحن اليوم - شعوباً ومثقفين - في وضع أمس ما نكون فيه إلى أن نسهم بأنشطتنا البحثية في دعم الأهداف الرامية لتحقيق السلام العالمي، وتفعيل التبادل الثقافي والتلاقي الحضاري خاصة بين الشعوب المتوسطة، ذلك لنكشف المجهول ونصحح الأحكام

التعميمية الخاطئة، خصوصا في وقت ارتفعت فيه وبشدة أصوات جاهلة تدعو إلى صدام الثقافات والحضارات.

## بيبليوغرافيا

أدونيس (2006). الصوفية والسوربالية. (ط. 3). دار الساقى للطباعة والنشر، ص. 114.

الأمير عبد القادر (1996). المواقف، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، (ج. 1). ص. 15، (الكتاب مصور من النسخة الاصلية المحفوظة بالمكتبة الوطنية الجزائرية).

الأمير عبد القادر (1996). المواقف الروحية، الموقف الثامن والخمسون بعد الثلاثمائة، (ج. 2). الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص. 411. (الكتاب مصور من النسخة الاصلية المحفوظة بالمكتبة الوطنية الجزائرية). ص. 369.

بركات، محمد مراد (2013). الامير عبد القادر الجزائري –المجاهد الصوفي. كلية التربية جامعة عين شمس، ص. 56. ص. 88.

برينو، اتيان (2001). عبد القادر الجزائري. (ميشال خوري، ت.). (ط. 1). الجزائر : دار الفارابي، ص. 406.

برينو، إتيان (2002م). عبد القادر الجزائري. (ميشال خوري، ت.). (ط. 2). الجزائر : دار الفارابي، ص. 12.

بلغراد، محمد (1983). "الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر الجزائري". في : مجلة التاريخ، عدد خاص بوفاة الأمير عبد القادر، 63.

بوعياض، محمود (1983، ماي-جوان). "عبد القادر والإنسان"، مجلة الثقافة، عدد خاص (75)، 284.

الجابري، محمد عابد (2012). مسألة الهوية والعروبة والاسلام والغرب. (ط. 4). مركز دراسات الوحدة العربية، صص. 192، 195.

## الرسائل الأكاديمية

السواح، فراس (2002). دين الانسان بحث في ماهية ومنشأ الدافع الديني. (ط. 4). منشورات دار علاء الدين.

شارل هنري، تشرشل (1992). حياة الأمير عبد القادر. (سعد الله ابوالقاسم، ت.). (ط. 2). الجزائر.

عبد الباقي، مفتاح (جوان-جويلية، 1998). الأمير عبد القادر الجزائري مع الشيخ محي الدين العربي. مجلة مسالك، العدد الثاني، 21.

عبد الباقي، مفتاح (د. ت.). الأمير عبد القادر الجزائري مع الشيخ محي الدين العربي. في مجلة مسالك، العدد (5)، (24، 153، 154).

عبد الباقي، مفتاح (د. ت.). الأمير عبد القادر الجزائري مع الشيخ محي الدين العربي، في مجلة مسالك، (5).

عبد الرزاق، بن السبع (2000). الامير عبد القادر الجزائري وادبه. (ط. 1). الكويت : مؤسسة جائزة. عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، صص. 153-154.

فرعون، حمو (2009-2010). فلسفة الاختلاف عند الامير عبد القادر (دراسة انثروبولوجية). [رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية، جامعة ابي بكر بلقايد، تلمسان]، صص. 123، 125.

## المجلات العلمية

محمد بن عبد القادر الجزائري (1903). تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر وأخبار الجزائر. (ج. 2). الاسكندرية : المطبعة التجارية. ص. 304.

المرباط، جواد (1966). التصوف والامير عبد القادر الحسني الجزائري. دمشق : دار اليقظة العربية، ص. 54.

المرباط، جواد (2007). التصوف والأمير عبد القادر. وزارة الثقافة، بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

يحي، بوعزيز، ودوميكيل، دو ايبالزا (1982). الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بميلة. (ط. 1). الجزائر : دار البعث، ص. 9.